لم تمت عائشة

اصول النهضة النسوية في مصر

قضت التيمورية سنة ١٩٠٢ فكان بين ما قيل في رثائها قصيدة نشرت عائشة في « المجلة المصرية » التي كان يصدرها خليل مطران . وهذا مطلع القصيدة :

ألا يا موت ويحك لم تراعِ حقوقاً للطروس وللبراعِ
تركتَ الكتب باكيةً بكاءً يشيب الطفل في عهد الرضاعِ

ومنها : سنبقى بعد عائشة حيارى كسرب في الفلاة بغير راعِ
لقد فقدت ولم تفقد علاها وهل شمس تغيبُ بلا شعاعِ
هي الدرُّ المصون ببطن ارضٍ وقد كانت كذلك في قناعِ

وهذا البيت يذكرني بقول المتنبي في رثاء والدة سيف الدولة :

على المدفون قبل الترب صوناً وقبل اللحد في كرم الخلالِ

ومن القصيدة المذكورة آنفاً :

فيا خير النساء بلا خلافٍ وقدوتنا بلا أدنى نزاعِ
لقد أحييتِ ذكر نساء مصرٍ وجدّدتِ العلا بعد انقطاعِ
وشدتِ صروح طهرٍ باذخاتٍ محصّنةً كحصنين القلاعِ
ودوّنتِ الثلاث بنظم درٍّ يزيدُ جمالها حسنُ اختراعِ
فمن للشعر والآداب يرعى ومن للنثر يا فضلى يراعِ
بحار هداك أروت كلّ صقعٍ وطار علاكِ في كلّ البقاعِ
فريع العلم أضحى في حدادٍ لفقدك ، والمعارف في النباعِ

هذه الابيات التي لا تخرج عن كونها الفاظاً مرصوصة في قالب السجع والروي بقصد الندب والتمديد المطروق ، ما كانت لتستحق من الالتفات اكثر مما تفوز به مثيلاتها التي ما زلنا نراها احياناً مهرولة في أنهار الصحف فضلاً عن صحائف « الدواوين » ! على أنها تستوقفنا باسم ناظمتها . وناظمتها هي ملك حفني ناصف (باحثة البادية بعد نظر) الطالبة في ذلك الحين بالمدرسة السنية . طالبة يظهر من افتخارها برثاء العلماء والعظماء انها تحلم بالكتابة اثناء عهد الدراسة ، أو انها تجدُ من نفسها وحيّاً حولها يواعث تدعوها اليها . وخليل مطران

الذي كان قد رثى الشاعرة قبل ستة اشهر ، في العدد الاول من السنة الثالثة لمجلته تلك (شهر يونيه ١٩٠٢) جعل لمرثاة ملك عنواناً مع ما فيهِ من حب التشجيع والمجاملة لابنة صديقهِ الكبير ؛ فان فيهِ كذلك لمحة الالهام تهفُّ على قلب شاعر يكتبُ ويتكلَّم احياناً كمن يقرأ في صحيفة الغد . وهو العنوان الذي اقتبستهُ لهذا الفصل الختامي من درسي الشخصية التيمورية : « لم تَمُتْ عائشة »

***

والآن وقد انقضى نحو ربع قرن على ذلك اليوم، وطوت الارضُ الرائيةَ بعد المرثية من المرأتين ، نرى لكلمة خليل مطران معنى اوسع كثيراً مما هو اراد وابغى

من المأثور عند الشرقيين قولهم « من خلَّف ما مات » وغرضهم من ذلك انَّ من يترك أبناءً بعدهُ فهم يتمّمون عملهُ ويخلّدون ذكرهُ فيظلُّ حيًّا فيهم . واننا لنضمّن هذه الكلمة مزيداً من المغزى بتكاثر عدد البنين لاننا ما زلنا في جهالتنا نحصي الناس والاشياء ونقدّرهم بالكمية دون الكيفية . على ان هذا القول لا يجري في موضع الاصابة وتقرير الواقع الاَّ اذا ظهرت في الابناء الميزة التي امتاز بها الوالدان او احدهما ، وإن لم تكن هي الميزة بعينها فما يوازيها من نوعها في الفضل والموهبة . وهو في غير ذلك مخربة بارزة واكذوبة صارخة تنفيها جميع الشواهد المثبتة من الناحية الاخرى ان صلة الرحم تحمل من التشابه بقدر ما تحمل من التشابه ، وانَّ قرابة الدم تكنّ من المقت والنفور بقدر ما تكنّ من العطف والمحبة ، وان كثيراً ما يكون الابناء للآباء والآباء للابناء علَّة فناء في الحياة (وبعد الموت) واستشهاد متنوّع طويل

اما عائشة فكانت امًّا لبنين وبنات قضى جميعهم ولم يبق منهم على الارض احد . فهي لم « تخلّف » ورغم ذلك فلم تمتِ وستظلّ ابداً حيَّةً بذاتها . وهي من الذين لهم ان يحيوا في الاشخاص المحبوبين منهم . فهي حيَّة حياة العلم والفضل في شقيقها العلاَّمة احمد تيمور باشا صاحب الخزانة التيمورية الغنى مكتبة خصوصية في القطر المصري ، وفي ما يخرجهُ من ضليع التواريخ والابحاث والمعاجم في العلوم التاريخية واللغوية الخطيرة

وهي كذلك حية في مجل شقيقها ، المرحوم محمد بك تيمور ، ذلك الروح الذي « ومض » في حياته القصيرة فاوجد من الآثار في الشعر والادب والنقد والمسرح ما قد كان يكفي ليملأ حياةً طويلة نشيطة . ولقد جُمعت آثارهُ منسقة في ثلاثة اجزاء كبيرة

فجاءت في الجزء الاول منها « وميض الروح » مجموعة شعرية الرقيق الحزين مصدّرة بهذه المقدّمة : « إهداء الديوان

« لروح عائشة تيمور أرفع هذه النفثات

« ابن اخيها

« محمد تيمور »

حيّة ايضاً في ابن اخيها الآخر ، محمود بك تيمور ، الذي ظهر حسن ذوقه في الاختيار وإحكام التنسيق وربط الموضوعات فيما بينها في مؤلفات المرحوم شقيقه التي تولّى نشرها. وتظهر مقدرتهُ الشخصية في نصرته لنزعة التجديد في الأدب الحديث ، وفي تلك الاقاصيص الرياليّة التي يرسلها بفنّ حاذق مشوبة بمسٍ من الكآبة مع ارتياب في الحياة وامتهانٍ لآلامها وافراحها . وهو فنٌّ يكاد يتخصص لهُ دون سواه في مصر

***

ثم نتخطّى حدود العائلة الفردية التي يتخطّاها حتماً كلُّ متفوّق بمجرّد تشخّص شخصيته فنجد التيمورية حية في الاسرة النسوية المصرية . ويذكر الذين تتبعوا مقالاتي عن عائشة انها كتبت بلهجة زمانها وقدر المستطاع في موضوعاتٍ نسوية واجتماعية ، منها التربية والزواج والطلاق . وملك حفني ناصف التي نالت شهادتها في السنة التالية لوفاة عائشة (١٩٠٣) تلقّت فعلاً من التيمورية وراثةً لم تكن باعظمة بكميتها ولكن بما يجب ان يضاف اليها وبالسبيل المخوفة بالصعاب والاشواك التي كان عليها ان تتبعها . فحملت تلك النفحة النسوية الاولى واضافت اليها نفحاتها حتى توفيت ساعة اليقظة الوطنية في هذه الديار . فما غمضت عيناها وسكنت حركة قلبها الاّ وقد انفجت بفعل الظروف والوقت والمدارس عيون وتيقّظت قلوب

لقد وضع قاسم امين برنامجاً لجميع المسائل النسوية الاجتماعية في هذا العصر . ولم يتكلّم كرجل نظري كما يقولون . بل كرجلٍ عرف امتهُ وعركها في المناصب التي شغلها وفي خبرة القضاء والاعمال ، وتأثر بخيرها وشرّها بسيطرتها على حياتهِ وبكلّ ما قاساهُ من الالم والعذاب . وكان يزيد فكره استنارة اطلاعهُ على مدنيّة الغرب ومسايرة حركة الاصلاح فيها مع مقدرتهِ على تبيّن الامور الصالحة من الطالحة وتلمّس ما يحسن منهُ للمرأة الشرقية دون سواهُ . فاختطّ لها برنامجاً حصيفاً ينيلها الحرية والكرامة والنبل دون ان

يخرجها عن سبيلها الطبعي في الحياة . أترى لم يسمع قاسم صوت عائشة بينما هو كان مهيئاً الخطة ؟ ألم يهمس لهُ ذلك الصوت شيئاً ما في تفكيره وآماله ؟

كانت إذن وراثة الباحثة مزدوجة لانها تلقتها من عائشة ومن قاسم . ولم يتكلم قاسم عن حاجته الفردية فحسب بل نادى بتعليم المرأة وتحريرها بل كان معبّراً عن رأي كثيرين من أصحابه ، كما ذكرتُ في كتابي عن « باحثة البادية » . نظّمت هذه الحاجة لتطوّر في نفوس الرجال الذين زاد طلبهم من النساء ميزات ومواهب ومعارف لم يكونوا يأبهوا لها من قبل . وزاد تشوّق النساء الى التعليم والاستنارة . ولئن لم تنتظم تلك الحركة بشكل جمعيات فانها كانت تنضج في سكون . وهدوء شأن البذرة تحت الثرى تنتظر ساعتها لتظهر . وإذ عصفت النهضة الوطنية فجرفت كثيراً من تكتّم الماضي خطت المرأة المصرية مع الامة الى طور جرأةٍ واقتحام يتهيأ لها منذ اعوام بل منذ جيلين . فانحلت الحركة النسوية الآن شكلاً هيولياً بعضهُ واضح منظّم . والكتلة الباقية منهُ يجب ان ينظر فيها الى ما نحن في حاجةٍ ماسة اليهِ دون نسخ ما تصنعهُ النساء في البلدان الاخرى

وليست الاصرات المعاكسة لتسكت صوت المرأة العادل او تخرسهُ . إذ ليس من يقوى على خنق تيار الحياة يسري في جذورٍ في أعرق جذور الانسانية

***

لقد تألمت المرأة في العالم وفي الشرق ألماً صادقاً ليس فيهِ شيء من التصنّع . وصمتت طويلاً وهي تحسب الفضل في الصمت كما كانوا يعلمونها ضلالاً . وكلما من تألم وكظم اكتسبت خبرة تنبئها بأن من آلامها ما هو تضخم وتورّم في حياتها وليس بالآلام الملازمة لجنسها كما يزعمون . فالآلام الناتجة عن طبيعة الاشياء لا قبَل لاحدٍ بها ، لها جبروت الناموس وطغيان العواصف وعنجهية الصواعق . ولكن علام تحتمل ما ليس في ذاتهِ الاّ تسخيراً لحريتها وانسانيتها واستغلالاً لشبابها وملاحتها وحقوقها الطبيعية ؟ أفي ذلك خير للمجتمع كما يقول المولولون ؟ وكيف تقوم سعادة المجتمع يا ترى على شقاء الافراد ؟ كيف يكون الجسم صحيحاً إذا كانت خلاياهُ عليلة ؟ كيف يرسخ البناء و يمكّن اذا كان الشقق والانخلال قد دبّ في كلّ لبنةٍ من لبناتهِ ؟

لقد تألمت المرأة فتعلمت بآلامها ، وعرفت في وحدتها الداء فاهتدت في سكوتها على الدواء . وانبرت اليوم تنطق لا لتنازل الرجل وتكافحهُ بل لتتعاون وإياهُ على اصلاح المجتمع واجتثاث الفاسد من اصوله . وها هي تباشر الاصلاح في مكانها الطبيعي ، اي

في البيت والمدرسة والجمعية حيث تنمو الافراد وتتكيف صورة المجتمع الآتي . وواجب الرجل اليوم ان يسمع هذا الصوت ويصغي ان رآه ضالاً او يتقد مطالبهُ حيث يراها على صواب . أما واجب المرأة الاكبر فهو ان تفهم نفسها وتتعرف طبيعتها ، ومع تيسير العمل لكلّ امرأة تحتاج اليهِ لتعيش شريفةً ولا تهبط الناس بتحمُّل نفقاتها ، يجب ان تدرك النساء فوق كل شيء ان وظيفتهن في الزوجية والامومة والحبة العائلية التي تجعل الحياة فردوس هناء ونشاط وارتقاء

***

وكما يرجع الى محمد علي بدء تاريخ مصر الحديثة ونشأة تطوّرها . وكما يبتدئ يقظة الروح القومية عند جمال الدين الافغاني . وكما تهبُّ مع مصطفى كامل نزعةُ العاطفة الوطنية وحبّ الراية المصرية . وكما تنسم اخبار قاسم امين لنسمع من جانب الرجل اوّل صيحة بوجوب تعليم المرأة وإنهاضها . كذلك جاء من التيمورية اول صوت نسوي تكلم عالياً في مصر الحديثة فانشد الحبّ على طريقتهِ ودعا في بابهِ الى الاصلاح والنهوض

خلال الذراري النسوية الخاملة المتعبدة لمعت صورة عائشة فكانت رائدة المرأة الجديدة . وسيظلّ شعرها يذكّرنا بنغمة القصب الساذج يشدو أناشيد الحبّ القديم الخالد . وستظل تلك الاناشيد لذيذة وان تقادم عليها العهد لانها اناشيد الجدّة الصالحة الناهضة الحنون . لذيذة لانها ابسط الاناشيد واصدقها . ولان صوت هذا القصب المترنم على ضفاف النيل في الظلام إنما هو بشير بقرب تنفّس الاسحار وانبلاج النهار

***

انّا المرأة اليوم فاحوالها وممكناتها مختلفة وسط كلّ ما يؤيدها ويحدو بها . هي مسوقة حتماً في التيارات التي تكتسح الامم الشرقية ، بل جميع امم العالم على الاطلاق . وهي كالسهم ماضية ليس فقط في نبل حقها بل خصوصاً في تعرّف واجبها والقيام بهِ لانهُ يستحيل ابتياع الحرية بغير ثمن المسؤولية . ولان الحقّ والواجب متلازمان متعاذيان متماسكان يسقط احدهما ان لم يقم الى جانبهِ الآخر

انشأت المرأة اليوم تعلم كما يعلم الرجل ان شأن الحقّ والواجب شأن اشجار النخيل التي لا تثمر إلاّ إذا قامت الواحدة منها بجوار الاخرى « م »

(انتهى بهذا الفصل البحث في شخصية التيمورية ودرس آثارها)